النخبة المثقفة الجزائرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي: دراسة في النشأة والتطور

The Algerian intellectual elite during the French occupation period A study of origin and developmen

فاتح باي[1]
مخبر المجتمع الجزائري المعاصر كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2 (الجزائر)
beyfateh77@yahoo.fr
محمد غزالي
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2 (الجزائر)
mghazali40@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2023/04/20 القبول 2024/01/06 النشر على الخط 2024/03/15
Received 20/04/2023 Accepted 06/01/2024 Published online 15/03/2024

ملخص:

نروم من خلال هذه الدراسة البحث في موضوع النخبة المثقفة الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي، مستعينين بالمنهج التاريخي؛ وهذا لتأكيد أو نفى من جهة طروحات بعض الأوساط الفكرية التي تذهب إلى أنّ نشأة الظاهرة النخبوية في الجزائر كانت نتيجة السياسات المختلفة التي أقرها الاحتلال الفرنسي في الجزائر؛ وفي مقدمتها السياسية الثقافية والتعليمية وهذا ما يتعارض من جهة أخرى مع موقف ثاني لباحثين مهتمين بالتاريخ الجزائري؛ والذين يؤكدون على حقيقة أنّ الاحتلال الفرنسي عشية احتلاله للجزائر وجد مجتمعًا متحضّرًا وبنى ثقافية تضاهي أو تفوق تلك الموجودة في فرنسا آنذاك. وقد توصلت الدراسة في النهاية إلى أنّ المجتمع الجزائري خبر الظاهرة النخبوية قبل الاحتلال الفرنسي ولكن بمسميات وخصائص مختلفة عن نظيرتها في المجتمعات الغربية كما ساهمت السياسة التعليمية للمحتل في إنتاج نوعين من النخب المثقفة؛ الأولى مفرنسة ذات ثقافة وإيديولوجيا غربية؛ والثانية إصلاحية تشكلت كردّ فعل على هذه السياسة من طرف الجزائريين، متشبعة بالمبادئ والقيم العربية الإسلامية

كلمات مفتاحية: النخبة المثقفة، الحقبة العثمانية، الاحتلال الفرنسي، العمائم القديمة، الشبان الجزائريين، النخبة الإصلاحية.

Abstract:

Through this study, we aim to dig and research the issue of the Algerian educated elite during the colonial period, using both the historical method ; and his various policies, foremost of which are the political, cultural, and educational ones, and this contradicts, on the other hand, the second position of researchers interested in Algerian history; Those who emphasize the fact that French occupation on the eve of its occupation of Algeria found a civilized society and cultural structures that match or exceed those in France at the time. In the end, the study concluded that the Algerian society experienced the elitist phenomenon before the French occupation, but with different names and characteristics from its counterpart in Western societies. The educational policy of the French occupations also contributed to the production of two types of educated elites. The first is French with Western culture and ideology; The second is reformism, which was formed as a reaction to this policy on the part of the Algerians, imbued with Arab Islamic principles and values.

keywords: The educated elite - Ottoman era - the French occupation - the old turbans - the young Algerians - the reformist elite

[1] – المؤلّف المراسل: فاتح باي البريد الإلكتروني: **beyfateh77@yahoo.fr**

أولا. مقدمة:

تزداد أهمية الفاعلين الاجتماعيين في المجتمعات الإنسانية خاصة في المنعطفات التاريخية الحاسمة والفترات العصيبة والفارقة التي تمر بها هذه المجتمعات؛ والتي قد تحدث داخلها هزات خطيرة وعنيفة وتهدد وجودها وكينونتها. ويعد المجتمع الجزائري من المجتمعات التي خبرت عبر تاريخها القديم والحديث والممتد لمئات السنين لحظات تاريخية ومحطات مفصلية وحرجة أحدثت تصدعات عميقة مست البنى الاجتماعية لهذا المجتمع ما تزال آثارها وارتداداتها مستمرة لحد الآن على مستوى الفرد والمجتمع.

ويمكن اعتبار "اللحظة الاستعمارية " من اللحظات التاريخية والفترات العصيبة التي مرت على الأمة الجزائرية وأثرت فيها أيما تأثير حيث تعرضت الجزائر لحملات عسكرية واعتداءات استعمارية متكررة وعنيفة كان أخرها وأخطرها الاحتلال الفرنسي؛ الذي عمل ومنذ دخوله الجزائر على القضاء على جميع مقومات وثوابت الأمة الجزائرية وفي مقدمتها تراثها الثقافي والحضاري؛ مستعملا في ذلك جميع الوسائل والأساليب محاولا من خلالها سلخ المجتمع الجزائري تدريجا عن امتداده العربي والإسلامي وإلحاقه بالدولة الأم – فرنسا- على حد زعم الفرنسيين.

ومن أجل إنجاح سياسته هذه عمد الاحتلال الفرنسي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر لخلق جماعة من الجزائريين مثقفة ثقافة غربية؛ كان ولاؤها لفرنسا ثقافيا وإيديولوجيا كرست جميع جهودها لتحقيق إما الاندماج الكلي مع المجتمع الغربي؛ أو المناداة بالمساواة والعدالة بين الجزائريين والأوربيين.

وما يهمنا في دراستنا هذه هو موضوع **تاريخية الظاهرة النخبوية في الجزائر** أي متى ظهرت ونشأت وتشكلت النخبة المثقفة في المجتمع الجزائري؟، ومن خلاله نطرح التساؤلات التالية: هل عرفت الجزائر الظاهرة النخبوية قبل الاحتلال الفرنسي أم هي مصاحبة له؟ ما هي الأطر الفكرية التي تكونت فيها النخبة المثقفة الجزائرية الجديدة في ظل الاحتلال الفرنسي؟؛ما هي الأدوار التي أسندت لهذه النخبة الجديدة وما تأثيرها على المجتمع الجزائري؟

ثانيا- الجهاز المفاهيمي للدراسة:

من أجل أن تكون الدارسة واضحة وجلية يجب على الباحث أن ينجز مجموعة من الخطوات المنهجية الضرورية، لعل أهمها توصيف وتحديد المفاهيم المستخدمة في دراسته نظرا لأهميتها الكبرى في البحث الاجتماعي، إذ تعد خطوة لا مناص منها في سبيل الوصول لنتائج تتسم بالعمق والعلمية. وقد عرفت المفاهيم محاولات تعريفية كثيرة؛ غير أن هناك شبه إجماع على أنها (رموز تعكس مضمون فكر، أو سلوك، أو موقف لأفراد مجتمع البحث بواسطة لغتهم)[1]. تبعا لما سبق فإن المفاهيم الرئيسة الواردة في دراستنا هي: النخبة، المثقف؛ والنخبة الجزائرية.

1-تعريف النخبة:

سنعرض في هذا العنصر تعاريف قدمها بعض الآباء المؤسسين لنظرية النخبة في الأدبيات الغربية الكلاسيكية؛ باعتبار أن هذا المفهوم هو في الأصل وليد هذه البيئة وتم تبوئته حديثا في الخطاب الفكري العربي كمحاولة لمحاكاة وتقليد المنتوج الفكري والنظري الغربي، ثم نقوم بعد ذلك بتقديم بعض التعريفات لمفهوم النخبة المثقفة الجزائرية قبل وبعد الاحتلال الاستعماري.

يذهب **فلفيردو باريتو** في محاولة تعريف النخبة انطلاقا من نظرته الخاصة عن التفاوت الإنساني حيث يقول (... أنه يمكن التمييز بين فئة من الناس وأخرى فيما يتعلق بإمكاناتها ونشاطاتها بجملة من المؤشرات المتعلقة بالقدرات الجسمانية والعقلية؛ مثل المهارات والذكاء بما يفتح

[1] فضيل دليو وآخرون: أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية، دط، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1999، ص92

المجال أمام جماعة ما تمثل أقلية لاحتلال مكانة اجتماعية عالية؛ وتستعمل هذه الجماعة القوة أو العنف والخديعة من أجل السيطرة على الحكم والبقاء فيه...)[1]

يعرف **جيتانو موسكا** النخبة من خلال مقاربته المناهضة للفكر الماركسي مثله مثل أستاذه **فلفيردو باريتو** ويؤكد على أن (... بين الحقائق والميول الدائمة التي يمكن أن توجد في كل بنية أساسية ظاهرة بينة على درجة تبدو فيها بوضوح لأقل العيون تدقيقا، ففي كل المجتمعات من تلك المجتمعات ضعيفة التطور والتي لم تكد تبلغ فجر المدنيات، إلى أكثر المجتمعات تقدما وقوة، نشأة طبقتان من الناس؛ طبقة حاكمة وطبقة محكومة؛ والطبقة الحاكمة هي دائما أقل هاتين الطبقتين عددا؛ وهي التي تقوم بكل الوظائف السياسية وتحتكر السلطة كما تتمتع بالفوائد التي تكون حصيلة لتلك السلطة..)[2]

يقدم **روبرت ميشلز** تعريف للنخبة يتوافق قليلا مع تعريف أستاذه **موسكا** فيقول (...في كل تنظيم أيا كان حجمه لابد أن توجد القيادة- النخبة- لكي يكتب له النجاح والبقاء؛ وطبيعة هذا التنظيم تمنح القادة القوة والامتياز، والقادة في التنظيم هم الذين يعبّرون عن آراء الأعضاء ويتدعم موقفهم باستمرار نتيجة لعوامل تنظيمية وأخرى سيكولوجية لكن العوامل التنظيمية لها الأهمية دائما وكلما ازداد التنظيم حجما وتعقيدا تزايد اعتماده على قادته وجهازه البيروقراطي الذي يكتسب خبرة فنية خاصة...)[3]

ما يلاحظ على هذه التعاريف أنها مست وتطرقت للنخبة السياسية أو ما يمكن أن نسميه النخبة الحاكمة فحسب؛ وأعلت من شأنها وبالغت من أهميتها ومحوريتها في مقابل النخب الأخرى المشكلة لهرم وقمة النسق الاجتماعي؛ والتي حتى وان تعرضت لها جعلت دورها ثانويا وتكميليا للنخبة السياسية؛ ومن هذه النخب نذكر النخبة الثقافية أو المثقفة.

1-1-النخبة المثقفة:

سنحاول هنا أن نقدم مجموعة من التعريفات لمفهوم المثقف في الفكر الغربي؛ وفي نضيره العربي والإسلامي، ولا نقول إننا سنتناول كل ما قيل حول هذا المفهوم؛ بل سنصطفي نماذج نعتقد أنها تفي بالغرض بحكم إنتاجها العلمي الكبير وسمعتها المرموقة وحضورها القوي في حقلها المعرفي .

1-1-2-مفهوم المثقف في الفكر السوسيولوجي الغربي:

من المفكرين الذين اهتموا بموضوع النخبة المثقفة والمثقف وجعلوه في صلب اهتماماتهم الفكرية والمعرفية نجد المنظر الماركسي الإيطالي **أنطونيو غرامشي**؛ حيث قدم إسهامات قيمة أثرى من خلالها المكتبة والتراث النظري العالمي في هذا المجال.

ويقدم أنطونيو غرامشي أولا؛ تعريفا للمثقف يتسم بالعمومية فيقول: (يمكن للمرء أن يقول: كل الناس مثقفون؛ لكن ليس لديهم كلهم وظيفة المثقفين في المجتمع)[4].

---

[1]مولود زايد الطيب، علم الاجتماع السياسي، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، 2007، ص 192-193

[2]أحمد زايد: البناء السياسي في الريف المصري، تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981، ص: 42

[3]محمد علي محمد: أصول علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2009، ص 74-75

[4]Rogers .Gottlieb : An Anthology of Western Marxism، Oxford University Press، New York ،USA ،1989 ، p115

ويضيف تعريفا أخرا أكثر دقة ووضوح من التعريف الأول حيث يقول:" إن كل فئة اجتماعية تري النور في بادئ الأمر على أرض وظيفة أساسية في عالم الإنتاج الاقتصادي تخلق عضويا في نفس الوقت الذي تري النور فيه شريحة أو عدة شرائح من المثقفين الذين يزودونها بتجانسها وبوعي وظيفتها الخاصة؛ لا في المضمار الاقتصادي فحسب بل في المضمار السياسي والاجتماعي[1]."

أما الفيلسوف الفرنسي **جون بول سارتر** فيعرف المثقف بالاستناد لفلسفته الوجودية؛ فيقول: "هو ذلك الإنسان الذي يدرك التعارض القائم فيه وفي المجتمع؛ بين البحث عن الحقيقة العلمية– مع كل ما يترتب على ذلك من ضوابط ومعايير– وبين الايدولوجيا السائدة –مع منظومتها من القيم التقليدية– وما هذا الوعي سوي كشف للنقاب عن تناقضات المجتمع الجوهرية[2]."

1-1-3- تعريف النخبة المثقفة في الحقل الفكري العربي والإسلامي:

يتفق عموم المهتمين والدارسين لموضوع النخبة المثقفة في الخطاب العربي والإسلامي أن أغلبية الأدبيات العربية والإسلامية التي تناولت مسألة المثقف وخاصة في الشق المفاهيمي كانت متأثرة بشكل أو بأخر بالمفاهيم السائدة في السياق النظري الغربي؛ بل نجد حتى أصداء الحوار الجاري بين التيارات الفكرية الغربية يتردد داخل الفضاء الثقافي العربي والإسلامي بعد محاولة تبوئته في سياق هذا الخطاب، ومن هنا نجد المفكرين العرب والمسلمين؛ منقسمين بين مختلف المدارس والتيارات الفكرية الرئيسة المهيمنة على ساحة الفكر الغربي ابتداء بمدرسة الحداثة؛ والتي ترتكز على المفهوم الديكارتي لوظيفة الفكر وتضع المثقف في قالب الناقد الاجتماعي؛ مروراً بالمدرسة الماركسية التي تقر بمبدأ "الفكرة أداة للدفاع عن المصالح الطبقية"؛ والمثقف كحامل لمشروع فكري وظيفته الدفاع عن الطبقة التي ينتمي إليها؛ وصولا للتيار الما بعد الحداثي القائم أساسا على نقد السرديات الكبرى والذي يعتبر أن المثقف يمثل سلطة معرفية وهو في النهاية أسير لهواجسها[3]؛ وسنستعرض هنا بعض التعريفات لمفهوم المثقف لعينة من المفكرين العرب والمسلمين المؤثرين في الساحة الفكرية.

يري المفكر الفلسطيني **إدوارد سعيد** أن المثقف: شخص يمثل بوضوح موقف من لون ما؛ وهو شخص يقدم صورة تمثيلية مفصلة إلى جمهوره على الرغم من شتي أنواع الحواجز والعراقيل؛ وهو فرد له رسالة تمثيل شيء ما سواءً كان يتحدث، أو يكتب، أو يعلم الطلاب، أو يظهر في التلفزيون؛ وترجع أهمية هذه الرسالة إلى إمكان الاعتراف بها علنا وإلى أنها تتضمن الالتزام والمخاطرة في الوقت نفس؛ وكذلك الجسارة والتعرض للضرر[4].

أما عالم الاجتماع الإيراني **علي شريعتي** فيعرف المثقفين على أنهم: يشكلون تلك الطبقة الخاصة التي تسيطر على المجتمع البشري في العالم، وفي كل الأمور التي ترتبط بالفكر، والروح، والعقيدة[5].

في حين يقدم المفكر المغربي **محمد عابد الجابري** تعريفا للمثقف يتوافق مع أفكاره الحداثية النابعة أساسا من الفكر الغربي؛ فالمثقف عنده هو: في جوهره ناقد اجتماعي، إنه الشخص الذي همه أن يحدد، ويحلل، ويعمل، من خلال ذلك؛ على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل، نظام أكثر إنسانية وأكثر عقلانية، إنه بذلك يصبح ضمير المجتمع والناطق باسم قوي التقدم التي لا تخلو

[1]Jean-Marc Piotte : La pensée politique de Gramsci ،Éditions Parti-pris ،Chicoutimi ،Québec ،2002 ،p17

[2]جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، ط1، تج جورج طرابشي، دار الآداب، بيروت لبنان، 1973، ص11

[3]أحمد صلاح الدين الموصللي، لؤي صافي: جذور أزمة المثقف في الوطن العربي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2002، ص86

[4]إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ط1، تج محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2006، ص 45

[5]علي شريعتي: مسؤولية المثقف، تر، إبراهيم الدسوقي، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، لبنان، 2005، ص 56

منها أي مرحلة من مراحله التاريخية؛ ولا مناص من أن ينعت بأنه شخص يثر العراقيل والفتن من طرف الطبقة المسيرة التي تعمل على الحفاظ على الوضع القائم[1].

2-تعريف النخبة المثقفة الجزائرية:

بالعودة إلى تعريف النخبة والتي يمكن اعتبارها جماعة من الصفوة تحوز مؤهلات وخصائص مكنتها من التميز عن العامة؛ فيمكن القول إن هذه الظاهرة كانت موجودة في المجتمع الجزائري منذ القدم وعلى مر الحقب التاريخية والحضارات المتعاقبة؛ وازداد دورها مع الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا[2] . لكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو النخبة المثقفة الجزائرية قبل وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ ومن هذا المنطلق سنستعرض بعض التعاريف التي تناولت المصطلح في هاتين الفترتين؛ بمعنى أخر ماذا نقصد بالنخبة المثقفة في الجزائر العثمانية؛ وفي الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي .ولقد أطلقت عدت مسميات على النخبة الأولى مثل: النخبة التقليدية، العمائم القديمة، النخبة المحافظة، نخبة الحضر، نخبة الإشراف؛ أما النخبة الثانية فعرفت هي الأخرى تسميات عديدة منها: النخبة الحداثية، الشبان الجزائريين، النخبة المتنورة النخبة الفرنكوفونية.

2-1النخبة التقليدية الجزائرية:

يعرفها **أبو القاسم سعد الله** بأنها " مجموعة من الأعيان والبرجوازيين يكونون طبقة غنية من أهل البلد أو من مهاجري الأندلس؛ اجتماعيا كانوا يحتلون المرتبة الثالثة بعد الأتراك والكراغلة، لم تكن لهم طموحات في السياسة ومع ذلك تقلدوا مناصب في القضاء والإفتاء والكتابة..." [3].

2-2 تعريف النخبة المثقفة الجزائرية الجديدة:

فضلنا استعمال مصطلح "جديدة " للدلالة عن النخبة الجزائرية التي ظهرت إبان الاحتلال الفرنسي وبالتحديد مع نهاية القرن 19 م؛ لكيلا نقع في فخ المفاضلة بين المصطلحات الأخرى الواصفة لهذه النخبة مثل: الحداثية، والمفرنسة، والمتطورة، والشبان الجزائريين؛ وأيضا للتفريق بينها وبين النخب الجزائرية التقليدية والمحافظة؛ مع العلم أن هذه المصطلحات كلها تحيلنا لتلك الفئة من الجزائريين الذين تلقوا تعليما في المدارس والجامعات الفرنسية مما مكنهم من الاحتكاك بالثقافة الغربية وشغل مناصب في إدارة الاحتلال أو العمل في المهن الحرة مثل المحاماة والطب؛ وتميزوا بذلك عن الجماهير التي كانت تئن تحت وطأة الجهل والأمية.

وقد عرفها المستشرق الفرنسي **جورج مارسي** في تقديمه كتاب الشريف بن حبيلس **الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي** بقوله "من خلال ثقافتك؛ فأنت تنتمي إلى ما يمكن أن نطلق عليه بكل شرعية نخبة الأهالي؛ أو ما يُتفق عمومًا على تسميته بالنخبة، أعني ذلك الذي يهم الجمهور الفرنسي لأنك تحمل بعض مظاهر النخبة الأوروبية، ولكن في المقابل وللسبب نفسه لا تحضي باهتمام الأهالي. أنت تمثل بعض الأطباء الشرفاء، وعدد قليل من المحامين الماهرين ومجموعة هائلة من الصحفيين، ومن دون نسيان القليل من المعلمين الأساسيين الذين يدركون تمامًا أهمية دورهم في نشر المعرفة والواجبات التي تعهدت بها فرنسا.. النخبة المسلمة التي أنت جزء منها والتي يبدو لي أنها العنصر

[1]محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000، ص25

[2]مولود قرين: النخبة الجزائرية " مرجعيات، تيارات، مواقف واهتمامات 1927/1892، ط1، دار ومضة، جيجل، الجزائر، 2021، ص 24

[3]أبو القاسم سعد الله محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص: 65

الأكثر فائدة في الوحدة بين الشعبين تغذت من جهة بالثقافة العربية وإنتاج أدباءكم في عصوركم الذهبية؛ وتأثرت من جهة أخرى بالأدب الفرنسي الذي تركه أدباءنا وأسلافنا؛ فأنتم المخولون بنقل ثقافتنا لإخوانكم الأقل حظا منكم..."[1]

ونقصد نحن بالنخبة المثقفة الجزائرية الجديدة في هذه الدراسة " المثقفين الجزائريين بالثقافة الفرنسية أو خريجي المعاهد والجامعات الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ والذين سعوا من خلال كتاباتهم وأطروحاتهم العلمية والسياسية والثقافية لنهضة المجتمع الجزائري ".

ثالثا- منهج الدراسة:

إن طبيعة المواضيع البحثية في العلوم الاجتماعية والإنسانية هي التي تحدد نوع المنهج أو المناهج المستخدمة في هذه الحقول؛ وهذا ما يفسر العدد الهائل من المناهج التي تحوزها هذه العلوم. وبما أن دراستنا هذه؛ تهدف إلى محاولة رصد وتتبع تشكل الظاهرة النخبوية في الجزائر قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي فقد كان لزاما علينا التوكؤ على المنهج التاريخي والذي لا يكتفي بتتبع الظاهرة المراد دراستها تاريخيا فحسب بل يتعداه ليصل لمرحلة وصف وتدوين وتسجيل الوقائع والأحداث التي جرت في الماضي وفق خطوات دقيقة ومدروسة؛ كما انه يساعد الباحث على تحليل وتفسير هذه الوقائع بالاعتماد على ترسانة من الإجراءات المنهجية الصارمة، وكل هذا من أجل فهم الحاضر ومحاولة التنبؤ بالمستقبل[2].

رابعا- النخبة المثقفة الجزائرية في العهد العثماني:

بالعودة لإشكالية الدراسة؛ فقد تباينت مواقف الباحثين إزاء مسألة وجود نخبة مثقفة في الجزائر من عدمه قبل الاحتلال الفرنسي، وللتأكد من صحة هذا الطرح يجب أولا؛ معرفة الأوضاع الثقافية للجزائر في تلك الفترة – أي قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر- من خلال تسليط الضوء على حالة التعليم ومؤسساته المختلفة في العهد العثماني باعتباره رافدا مهما وضروريا لقياس مدى تثقف وتحضر أفراد أي مجتمع، كما تعد هذه الحقبة آخر فترة من الناحية التاريخية تسبق الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد ان كانت دولة قوية سياسيا، وعسكريا واقتصاديا في الحوض المتوسط؛ لذا من المنطقي تاريخيا التطرق لها بإسهاب لمعرفة الأوضاع الثقافية في الجزائر آنذاك ومن ثمة التأكد من وجود نخبة مثقفة جزائرية من عدمه.

إنّ الدارس والمتمعن للحياة الثقافية إبان الحكم العثماني للجزائر لا يجد ما يشير إلى وجود سياسة تعليمية وثقافية للأتراك؛ فعلى الرغم من مكوثهم حوالي ثلاثة قرون بالجزائر إلا أن دوره كان ثانويا في هذا المجال ولم يكن لهم أي إسهام مباشر في هذا الميدان، والدليل على ذلك ما ذهبت إليه الدراسات التاريخية المهتمة بهذه الفترة والتي تؤكد على حقيقة أنه لم توجد آنذاك ولا مؤسسة حكومية خاصة بالتعليم كما هو معروف اليوم كوزارة أو مديرية أو أية مؤسسة حكومية رسمية أخرى تختص وتعنى بالشأن الثقافي والتعليمي؛ من حيث تأسيس وتحضير المدرسين وتنظيم التلاميذ ووضع البرامج الدراسية لذلك، إنما الأمر ظل مرتبطا بالأفراد والعائلات والمؤسسات الخيرية الحرة طيلة الوجود العثماني بالجزائر[3]

[1]cherif benhbeyles :l'Algérie françaisevue par indigène ,préface de George marçais, imprimerie orientale, Alger, 1914 pp 1-2

[2]بلقاسم سلاطنية، حسان الجيلاني، منهجية العلوم الاجتماعية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص .167

[3]أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1998، ص: 22

ويمكن القول إن هذه السياسة وبالاستناد على خبراتنا السابقة حول الموضوع لم تطبق في الجزائر فحسب؛ بل كانت معروفة عن العثمانيين حتى في بلادهم أناضوليا؛ وسادت في جميع البلدان العربية والإسلامية وحتى الأوربية التي دخلت تحت سلطتهم المباشرة أو غير المباشرة فالأتراك لم يولوا اهتماما خاصا بالجانب الثقافي أو العلمي بالمقارنة مع الجوانب الأخرى كالجانب السياسي، أو الاقتصادي، أو العسكري، أو الإداري، كما أن تركيزهم كان موجها حول ما يمكن تسمية "جهاد البحار" وذلك لصد الحملات الأوربية على السواحل التي كانت خاضعة للحكم العثماني خاصة في شمال أفريقيا. وقد أثرت هذه السياسة تأثيرا سلبيا على الأوضاع العامة في الدولة العثمانية ويمكن عدها من الأسباب الرئيسة والمباشرة لتفككها وانهيارها فيما بعد.

غير أن الشيء الإيجابي أن الحكام الأتراك وعلى الرغم من استقالتهم وانسحابهم وعدم اهتمامهم بشؤون التعليم والثقافة فهم من جهة أخرى لم يحاربوا التعليم العربي الإسلامي في الجزائر ولم يعملوا على تقييده أو عرقلته، حيث شهد انتشارا واسعا في هذه الفترة بشهادة حتى الفرنسيين أنفسهم؛ من خلال الوثائق الرسمية الفرنسية والبحوث والدراسات الأكاديمية التي كتبت من طرفهم حول موضوع التعليم في الجزائر إبان الحكم العثماني؛ وقد كان يتألف من مستويات التعليم الثلاث المعروفة اليوم؛ الابتدائي، والثانوي، والعالي[1].

ويمكن أن نطلق على الموقف التركي هذا إزاء الحياة الثقافية في الجزائر بالحياد الإيجابي أو سياسة اللاسياسة حيث لم تكن هناك –كما ذكرنا سلفا– خطة حكومية واضحة للتعليم أو برنامج رسمي لتشجيعه وتطويره أو العناية بأهله، وإنما كان خاضعا للمبادرات الفردية والعائلية– خاصة العائلات الميسورة الحال– والمؤسسات الإسلامية الخيرية، حيث كان التعليم يحظى باحترام كبير في أوساط السكان والأهالي لاسيما ما تعلق منه بالدراسات الدينية[2]. وقد ساهمت هجرة المورسكيين – سكان الأندلس– للجزائر واستقرارهم بها بعد سقوط الأندلس في احتكارهم لوظيفة التعليم وتغييرهم لطرقه وأساليبه العتيقة من خلال إدخال علوم جديدة؛وفي هذا الصدد يؤكد أبو القاسم سعد الله على هذه الجزئية حيث يقول "**لقد احتكر الأندلسيون ميدان التعليم في المغرب العربي ولاسيما في الحواضر، ونقلوا طريقتهم الخاصة بهم إليها؛ومن ذلك عدم الاقتصار في تعليم الأطفال على حفظ القرآن كما كان الحال قبلهم بل أضافوا إليه تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم وتدارس بعضها، كما علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته** "[3].

1-الأطر الفكرية المنتجة للنخبة المثقفة الجزائرية في العهد العثماني:

من الدلائل على ازدهار الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية نجد انتشار الحواضر العلمية والتي كانت تحوز على مراكز لأكبر المعاهد والمؤسسات العلمية والثقافية قبل الاحتلال الفرنسي مثل؛ العاصمة، وقسنطينة وتلمسان، وبجاية ومازونه؛ نتيجة من جهة لاهتمام الجزائريين بالتعليم وخاصة الشرعي منه وذلك نابع بالأساس من التزامهم بتعاليم الدين الإسلامي؛ وكذا لتقاليدهم التربوية والحضارية التي توارثتها الأجيال من جهة أخري. ومن المؤسسات التربوية والتعليمية أو ما يصطلح عليه عادة بالأطر الفكرية التي ساهمت في ازدهار الحالة الثقافية والتعليمية في الجزائر في تلك الفترة نذكر:

1-1-المساجد والجوامع:

من المؤسسات والمنشآت التعليمية والدينية التي كان لها دور ريادي ومؤثر في الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية نجد المساجد والجوامع والتي لا يمكن أن تخلو منها أي مدينة أو قرية في البلاد الإسلامية؛ والجامع من الناحية الوظيفية والعمرانية أكبر من المسجد لان الأخير هو مكان

[1]أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، مرجع سابق، ص 22

[2]عبدالقادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص ص 25-26.

[3]أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص: 47

لإقامة الصلاة وتحفيظ الأطفال القرآن الكريم فحسب؛ أم الجوامع فهي تقوم بأدوار ووظائف عديدة؛ فبالإضافة لدورها التقليدي من حيث هي مكان لأداء فريضة الصلاة فهي تضطلع بمهام أخرى من أهمها؛ إلقاء الدروس في شتى المعارف والعلوم والفنون التي كانت معروفة آنذاك، كما أن بعضها ونظرا لمكانته العلمية الرفيعة وعلو شأنه كان يسمي بالجامع الأعظم أو الأكبر[1].

ومما سبق نجد أن الجوامع والمساجد لعبت دورا بارزا في تعليم وتثقيف الأهالي لاسيما في الجانب الديني والعقدي وفي الحفاظ على الخصوصية والمرجعية الدينية الجزائرية الأصيلة وفي مقدمتها الخيار العقدي الأشعري والمذهب الفقهي المالكي ورواية ورش عن نافع في الشق الاقرائي؛ والتي توارثها الجزائريون منذ الدولة الموحدية ومؤسسها ابن تومرت، في مقابل غلبة وانتصار السلطة الوافدة (الأتراك) للمذهب الحنفي.

1-2-المدارس القرآنية(الكتاتيب):

تعد المدارس القرآنية والكتاتيب مراكز لتحفيظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية وبعض المعارف الدينية البسيطة، وقد أجمعت الدراسات التاريخية التي تناولت موضوع الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية على انتشار هذا النوع من المدارس في كل المناطق في الجزائر تقريبا. ففي كل حي من الأحياء في الحواضر أو قرية من قرى الريف نجد هذا النوع من المؤسسات التعليمية؛ كما كانت منتشرة أيضا في البادية والمناطق المعزولة؛ وقد ساهمت بشكل كبير في تدني وانخفاض نسبة الأمية لدى مختلف أفراد المجتمع باختلاف أعمارهم، وجنسهم وحتى انتمائهم الطبقي، كما خلفت حالة من الانبهار والإعجاب لدى كل من وفد على الجزائر في تلك الفترة حسب ما تذكره الدراسات التاريخية دائما[2].

إن العدد الكبير من المدارس القرآنية والكتاتيب في الحواضر الجزائرية خاصة يؤكد من جهة على اهتمام الجزائريين بالتعليم والثقافة وخاصة في شقهما الديني لاعتبارات دينية وعقائدية كما سلف ذكره من خلال حرصهم على تنشئة أبناءهم تنشئة دينية خالصة باعتبار أن الدين الإسلامي يحرض على العلم خاصة الشرعي منه؛ ومن جهة أخرى تدعم هذه المؤشرات الموقف الداعم لفكرة ازدهار الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر أثناء الفترة العثمانية؛ لان انتشار المؤسسات التعليمية دليل قوي على تطور المجتمع وازدهاره في هذا الجانب.

وكخلاصة لكل ما سبق نستطيع أن نقول؛ إن المدارس القرآنية والكتاتيب كانت تعد اللبنة الأولى للتعليم في تلك الفترة؛ وكانت منتشرة في جميع مناطق البلاد؛ كما أوكلت لها – بالإضافة لمهمة نشر التعليم ومحو الأمية- وظيفة إنسانية واجتماعية هامة تتمثل في تربية النشء تربية إسلامية خالصة.

1-3-الزوايا:

لقد أدى توجه الجزائريين نحو المذهب الاشعري منذ الدولة الموحدية إلى انتشار ظاهرة التصوف بين أفراد المجتمع وكمحصلة لذلك شهدت الزوايا كمؤسسة دينية وروحية تمددا خاصة في الفترة العثمانية حيث لم تكن هناك مدينة أو قرية تخلو من هذا النوع من المؤسسات، ولم يقتصر دورها على هذا الجانب فحسب بل تعداه ليشمل وظائف أخرى لعل أهمها نشر التعليم ومحاربة الأمية في المجتمع الجزائري. ومن الحواضر الثقافية التي اشتهرت وانتشرت فيها الزوايا نجد كل من: تلمسان والجزائر، وقسنطينة، وبجاية؛ فمدينة الجزائر على سبيل المثال لا الحصر كانت تحصى العديد من الزوايا والأضرحة؛ مثل زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وزاوية سيدي عبد القادر الجيلالي، كما كانت توجد حوالي 16 زاوية بمدينة قسنطينة من أهمها زاوية سيدي الكتاني وسيدي مسيد، وسيدي عبد المومن، ونفس الكلام ينطبق على منطقة

[1]أشرف صالح محمد سيد: "المراكز الثقافية في دار السلطان(الجزائر) أواخر العصر التركي"، مجلة أماراباك مج 04، ع/07ن (2013)، ص 64

[2]أشرف صالح محمد سيد: مرجع سابق، ص 64.

زواوة–بجاية– فعلى الرغم من صعوبة تضاريسها ألا أنها كانت تعتبر من أكثر المناطق انتشار للزوايا وقد ذكرت الدراسات التاريخية أن المنطقة كانت تحوز على حوالي50 زاوية.[1]

ومن الأسباب التي ساهمت أيضا في انتشار التصوف والزوايا في الجزائر في الفترة العثمانية تأثر الأتراك واعتقادهم بهذا المنهج والمذهب الديني؛ حيث نجد أن الحكام العثمانيين سواء في الآستانة أو في مختلف الأقطار العربية والإسلامية التي كانت تحت سلطانهم قربوا إليهم شيوخ الزوايا والطرق الصوفية واجزوا لهم الهدايا والعطايا؛ واحتلوا مكانة سامية في الدولة انطلاقا من سلطتهم الرمزية المقدسة في المخيال الرسمي والشعبي التركي.

1–4–الأوقاف:

احتلت المؤسسة الوقفية مكانة خاصة في المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية وامتد تأثيرها على عديد النواحي المجتمعية لاسيما الثقافية والدينية والاجتماعية وتعددت وظائفها وأدوارها. فمن الناحية الاجتماعية كانت أداة فعالة في تماسك الأسرة والمحافظة على حقوق الورثة والعجزة؛ وتحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم، وكانت تسد احتياجات المشتغلين في الحقل المعرفي والتدريسي من؛ علماء، وأساتذة، وفقهاء وطلبة، ومعلمين وتعطي نفقات القائمين على المساجد والمدارس والأضرحة والزوايا، إلا أن الدور الذي خلقت من أجله هو؛ خدمة العلم وتمويل مؤسساته[2]. أما بالرجوع لمصادره تمويلها؛ فقد اختلفت وتعددت إلا أنها كانت غالبا عبارة عن هبات وحبوس يقدمها أهل الخير والصلاح من أفراد المجتمع؛ كما ساهم رجال الدولة والموظفين السامين فيها كعمل من أعمال الخير[3].

1–5–المكتبات:

لقد كانت الجزائر في العهد العثماني تعج بعديد الفضاءات التعليمية والثقافية والدينية؛ وهذا ما يدحض الفكرة التي روج لها الفرنسيين والقائلة بتأخر المجتمع الجزائري وجمود الفكري والثقافي في الفترة التي سبقت غزوهم للجزائر؛ وما يعزز هذا الطرح هو التقارير التي رفعها الفرنسيون أنفسهم والتي عبروا من خلالها عن اندهاشهم الكبير من كثرة الكتب والمكتبات الموجودة في الفضاءات التعليمية آنفة الذكر والتي كانت منتشرة في كل المناطق التي احتلوها تبعا وخاصة في الحواضر الثقافية. كما أقدم الفرنسيون على جمع مختلف الكتب والمخطوطات وخاصة النادرة منها من مختلف مكتبات المدن الجزائرية التي وقعت في أيديهم وحتى البعيدة منها وصلوها لاقتناء كتبها مقابل أثمان زهيدة أو بعض الهدايا البسيطة التي قدموها لمالكي هذه الكتب من الأهالي والسكان[4].

لقد شكلت المكتبات في الجزائر في فترة الحكم العثماني وسيلة من الوسائل المهمة في نشر التعليم والثقافة العربية والإسلامية في الحواضر وحتى في المناطق البعيدة والصحراوية، كما كانت تعد فضاء لشحن عقول العلماء والدارسين بمختلف العلوم والمعارف؛ ولعب السكان دورا محوريا في المحافظة عليها والعمل على نشرها لإيمانهم العميق بدورها–كوسيلة لنشر التعليم والمعرفة– وشغفهم الكبير بكل ما له صلة بالثقافة العربية والإسلامية[5].

---

[1]كمال خليل: "المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر، التأسيس والتطور (1850–1951)"(رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية2007 –2008)، ص04.

[2]أشرف صالح محمد سيد، مرجع سابق، ص: 70

[3]أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال: مرجع سابق، ص160

[4]أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 286

[5]عبدالقادر حلوش، مرجع سابق، صص 25–26.

تعقيب:

على الرغم من انتشار المؤسسات التعليمية والدينية في الجزائر العثمانية (المساجد، الزوايا...)؛ ولعبها دورا هاما في ازدهار الحياة الثقافية والتعليمية ووفرة الكتب والمؤلفات؛ إلا أن الدارس والفاحص لمستوى التعليم آنذاك يجد انه كان تعليما دينيا بسيطا وأوليا؛ يقدس النقل على حساب العقل النقدي يعتمد أساسا على القراءة والكتابة والتلقين ولا يتعدى في مجمله تحفيظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ خاليا من أي إبداع أو تجديد؛ ولا يلبي غالبا شغف الدارسين والمتعلمين مما أضطر العديد منهم الالتحاق بكبرى الجامعات الإسلامية المشهورة آنذاك لتوسيع معارفهم وتطوير ملكاتهم العقلية

إن هذا الحكم يحيلنا مباشرة للتساؤل الذي طرحناه في البداية حول وجود أو انعدام نخبة مثقفة في الجزائر في تلك الفترة- العهد العثماني- على اعتبار أن السياسة التعليمية والثقافية لأي بلد تسهم لا محالة في هذا الجانب، وبالعودة للسياسة الثقافية التي اعتمدتها الدولة العثمانية في الجزائر والتي اتسمت كما قلنا سلفا بالحياد الإيجابي نجد أن هذه السياسة -حسب دعاة الرأي الأول- ساعدت على بروز نخبة مثقفة في الجزائر؛ لأن أي تدخل من قبل الأتراك في المجال الثقافي؛ كان يمكن أن تكون نتائجه عكسية.

إن المنافحين عن هذا الطرح يؤكدون وجود نخبة جزائرية قوية قبل الاحتلال الفرنسي تتشكل أساسا من قوى ثقافية وتجارية، وسياسية، وعسكرية، وحضور النخبة المثقفة هنا كان واضحا ومميزا في الحياة الاجتماعية والثقافية الجزائرية آنذاك، وهذا الرأي تقاسمه بعض المؤرخين الجزائريين والفرنسيين أيضا؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هنا ما كتبه كل من الكاتب **بوليو** والمنظر السياسي **ألكسيس دي توكفيل**؛ فالأول أكد أنه كان للجزائر حضارة متقدمة ومجتمع منتظم وعاطفة ذاتية قوية بذاتها، أما الثاني فقد صرح أمام المجلس الوطني الفرنسي سنة 1847، بأنه كان للجزائر حضارتها الخاصة رغم تخلفها، واعترف"...**إننا قد جعلنا المجتمع الإسلامي الجزائري أكثر شقاءً وأكثر بربرية مما كان عليه قبل وجودنا**[1].

وقد استدل هؤلاء-المدافعين عن الطرح الأول-ببعض الفاعلين الثقافين من أمثال أحمد بوضربة، ومحمد الكبابطي ومحمد بن العنابي، وعبد الرحمان الأخضري، ومحمد الخروبي، والشيخ الفقيه مصطفى باش تازري القسنطيني؛ لتأكيد طرحهم هذا معتبرين أن هذه الأسماء ساهمت في ازدهار وانتشار الثقافة في المجتمع الجزائري. ومن الشخصيات التي كان لها حضور لافت في الحياة الثقافية والاجتماعية وحتى السياسية نجد شخصية حمدان خوجة وذلك نظرا لثقافته الواسعة وإحساسه بالمسؤولية اتجاه مجتمعه ودفاعه عنه ومحاولته رفع الظلم عن شعبه من خلال كتابة العرائض وإسماع صوته للرأي العام العالمي خاصة في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، وعليه يمكن اعتباره من الناحية الموضوعية والتاريخية رائدا للنخبة المثقفة الملتزمة لا في بلاده فحسب ولكن في العالم العربي والإسلامي أيضا؛ وهذا لأن أفكاره ومواقفه تعد بداية لعصر التنوير في العالم العربي والإسلامي والذي نتج عن الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب.[2]

خامسا- النخبة المثقفة الجزائرية في فترة الاحتلال الفرنسي:

في مقابل الرأي الأول المنافح عن فكرة وجود نخبة مثقفة جزائرية في العهد التركي نجد فريق أخر يعارض هذا الطرح وبشدة ويدعي أن الجزائر ومعها أغلبية البلدان العربية والإسلامية كانت تعيش أوضاعا تشبه إلى حد بعيد أوضاع أوربا العصور الوسطى بلا سكان حضريين ولا طبقة وسطى ولا كيان ثقافي؛ وهؤلاء من المؤيدين لفكرة الجزائر الفرنسية ومنهم المستشرق الفرنسي **جورج مارسي** الذي يؤكد بأن سكان الجزائر

[1] أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2009، ص 59-60.

[2] أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص 36

قبل الاحتلال كانوا جهلة بكل أشكال حضارة المدن وهناك مدافع آخر يقول؛ لم يكن للجزائر سكان مدن ما عدا في مدينة تلمسان [1]. إن هؤلاء يربطون بين تشكل النخبة المثقفة في الجزائر والظاهرة الاستعمارية؛ أي أن تشكل الأولي كان بسبب الثانية.

وللتأكد من صحة هذا الطرح يجب أولا التحقيب لفترة الاحتلال الفرنسي للجزائر وتسليط الضوء على السياسة التعليمية والثقافية للفرنسيين وأثرها على البنى السوسيوثقافية للمجتمع الجزائري؛ لمعرفة فيما بعد تأثير هذه السياسة على إنتاج ونشأة النخبة المثقفة الجزائرية؛ بمعنى أخر لا مناص من دراسة سياسة المحتل الفرنسي المطبقة في الحقل التعليمي والثقافي للإجابة عن الأشكال المطرح الخاص بعلاقة هذه السياسة في إنتاج نخبة جزائرية مثقفة.

1-الأطر الفكرية المنتجة للنخبة المثقفة الجزائرية الجديدة:

انتهج الفرنسيون بعد احتلالهم الجزائر مباشرة ما يمكن أن نطلق عليه **سياسة الأرض المحروقة** والتي مست جميع البنى والانساق المجتمعية بغرض محو الشخصية الوطنية الجزائرية وقد نجحوا في ذاك إلى حد بعيد؛ ومن نتائجها خاصة في الشق الثقافي -كما ذكرنا سلفا- القضاء على الفضاءات الثقافية والأطر الفكرية التي ساهمت في إنتاج ما يمكن تسميته بالفئة المثقفة المتنورة في المجتمع الجزائري. وسنحاول في هذا العنصر تصوير الحالة الثقافية والتعليمية للجزائر ما بعد الاحتلال لتأكيد أو نفي فرضية تشكل **نخبة جزائرية جديدة** أثناء فترة المحتل؛ وسنتطرق أولا للسياسة التعليمية لهذا الأخير ومؤسساتها في الجزائر وذلك من خلال عرض الخطوط العريضة التي جاءت بها.

لم تكن للفرنسيين خلال السنوات الأولى للاحتلال سياسة تعليمية وتربوية موجهة لنشر التعليم بين الجزائريين؛ بل اتسمت هذه الفترة بالأعمال العسكرية الوحشية المصاحبة لمحاولته – المحتل- فرض سلطته بالقوة؛ كما لم يضع أي خطة من شأنها نشر التعليم في المجتمع الجزائري بل على العكس من ذلك مارس عليهم ضغطا رهيبا لمنعهم من تعليمهم الإسلامي. وفي هذا الصدد ظهرت آراء متناقضة بين الفرنسيين أنفسهم حول موضوع تعليم الجزائريين، فانقسموا بذلك إلى ثلاث أقسام؛ طرف ناد بضرورة تعليم الجزائريين تعليما غربيا خالصا لكسبهم لصالحهم؛ لأن تركهم في الجهل يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها خاصة مع أمكانية تأثير المتعصبين عليهم؛ أما الاتجاه الثاني فركز على فكرة أن الجزائريين أعداء وبرابرة لذا يجب تحيدهم وإبعادهم إلى المناطق النائية والمعزولة لاتقاء شرهم[2]؛ أما الطرف الثالث فقد كان برغماتي التوجه وذهب إلى إمكانية تعليم وتثقيف فئة قليلة منهم يكون ولائهم لفرنسا فكريا وإيديولوجيا لغرض القيام ببعض المهام لعل أهمها لعب دور الوسيط بين الكولون والأهالي. ونتيجة لهذا الإهمال والاختلاف في وجهات النظر بين الفرنسين حول قضية تعليم الجزائريين استطاع البعض منهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه وانبروا لتعليم أنفسهم بأنفسهم من خلال بعض المؤسسات التعليمية كالمدارس القرآنية والمساجد والزوايا التي استطاعت أن تسلم من سياسة التدمير والحرق والمضايقات الفرنسية أو لكونها ظلت بعيدة عن متناوله.

ولم يدم هذا الوضع طويلا إذ انتصر الاتجاه الثالث الداعم لفكرة تعليم فئة قليلة من الجزائريين. حيث بدأت تتشكل السياسة التعليمية الفرنسية منذ العهد الإمبراطوري (بعد سنة 1850) وأصبحت لها ملامح كبرى تسير من خلالها؛ تتمثل أساسا في القضاء على الهوية الوطنية وإحلال الثقافة الغربية مكانها من خلال تحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع فرنسي وإلحاقه مباشرة بالوطن الأم -فرنسا-، ولتسهيل هذه المهمة ركزت البرامج التعليمية للمحتل كثيرا على هذا الجانب بشكل تفصيلي ومقنع يستطيع على الأقل بث الشكوك في أفكار الجزائريين حول انتماءهم العربي والإسلامي[3].

---

[1] المرجع نفسه ص 59

[2] ع القادر حلوش، مرجع سابق، ص 38

[3] المرجع نفسه، ص ص 47-48

لم تكن غاية المحتل من خلال سياسته التعليمية تثقيف أفراد المجتمع الجزائري وتنويرهم بل العكس من ذلك؛ كان هدفه بث الدعاية الفرنسية لتبرير وجوده ومن ثمة دمج كل فعاليات المجتمع تدريجيا في الثقافة الغربية لتسهيل تدحينهم لاحقا، كما أن تظاهره من جانب آخر أمام الجزائريين بإصلاح التعليم العربي والإسلامي من خلال إخضاع مؤسساته لسلطته كان بغرض تجنب ثورة هؤلاء ضد خطط هذا الأخير.

وكوسيلة من وسائل العقاب التي انتهجها المحتل في حق الجزائريين الرافضين لسياسة التغريب والفرنسة؛ عمد إلى حرمانهم من التعليم الإجباري الذي جاءت به مراسيمه التعليمية لاسيما مرسوم (1883-1887-1892)، وأغلق المدارس الحكومية التي أسستها الجمهورية الثالثة لتحل محلها مدارس مبنية على التمييز العنصري بين الجزائريين والأوربيين من حيث المؤسسات والبرامج سميت **بالمدارس المساعدة** ذات البرامج التعليمية الأولية والتطبيقية البسيطة[1].

إلا أن هذه الإجراءات العقابية استثنت منها بعض العائلات الجزائرية التي قدمت خدمات للمستعمر حيث كافأها بأن سمح لأبنائها بإكمال جميع المراحل التعليمية في الجامعات الفرنسية. لقد خلق وأنتج هذا الاستثناء ما اصطلح على تسميته في الأدبيات التاريخية بجماعة النخبة أو النخبة المثقفة الجزائرية الجديدة والتي تم عزلها نتيجة لهذا التعليم نهائيا عن محيطها العربي الإسلامي وأصبحت مرتبطة فكريا وثقافيا ووجدانيا بالثقافة الغربية من أجل تسهيل اتصالها مع الأهالي وخلق فئة تعمل كوسيط بينها وبين هؤلاء[2].

2-أهداف الاحتلال الفرنسي من إنتاج النخبة المثقفة الجزائرية الجديدة:

من الواضح أن المحتل الفرنسي وجد صعوبة في التواصل مع الأهالي وذلك للفروقات والاختلافات الثقافية والعقائدية بين الطرفين؛ لذا سعى من خلال سياسته التعلمية لخلق نخبة مثقفة جزائرية من الوسط الأهلي معجبة ومتأثرة بالثقافة الغربية لتكون واسطة بينه وبين أفراد مجتمعهم ولتحفيزهم على قبول الآخر الفرنسي وثقافته. ولقد تابع **جول فيري** وزير التعليم الفرنسي بارتياح كبير بعد زيارته للجزائر سنة 1892 نتائج إصلاحاته التعلمية ومساهمتها في بروز أولى طلائع النخبة الجزائرية الجديدة الذين تلقوا تعليما فرنسيا خالصا وذلك منذ سنة 1891؛ وأصبح أولئك خلال العشرين سنة الموالية يحملون لقب **الشبان الجزائريين** تميزا لهم عن اسم **العمائم القديمة** الذي كان يطلق على الشيوخ المحافظين من ذوي التكوين العربي الإسلامي التقليدي. ونفس الأمر نجده عند **جيل كانبون** (الحاكم العام للجزائر من سنة 1891 إلى 1897) الذي سار هو الآخر على خطى مواطنه **جول فيري** في محاولة انتداب نخبة جديدة لصالحه من بين الأهالي ليتخذها وسيطا طبيعيا وضروريا بين الحكومة الفرنسية والسكان؛ ولقد علقت على ذلك صحيفة الوقت الفرنسية سنة 1904 بقولها: **إن وجود طبقة من الأهالي؛ ميسورة الحال، وذكية، ومتعلمة، ضرورة ملحة بالنسبة إلينا، إذا أردنا أن يسود بين الطائفتين تقارب وتواجد جماعي، يقبله الطرفان بسهولة.** وفي سنة 1908 أكد الحاكم جونار على " **أن من مصلحة فرنسا تشكيل نخبة مثقفة جزائرية تكون قادرة على نشر مبادئنا وقيمنا في العدالة والرقي، وتكون بورجوازية محافظة ومتمسكة بارتباطها معنا؛ ومنضوية تحت لوائنا لترعى ثمار التقدم الذي تحقق لفائدتها**"[3].

3-أدوار النخبة المثقفة الجزائرية الجديدة:

من حسنات المؤسسات التعلمية الفرنسية بمختلف مراحلها على بعض العناصر الجزائرية ذات الحظوة المجتمعية أن جعلت منهم مثقفين وفئة متميزة داخل المجتمع الجزائري، ومن مآخذ السياسة التعليمية الفرنسية عليهم أن أصبحوا يعيشون في تناقض تام واغتراب كلي مع مختلف

[1] ع القادر حلوش، مرجع سابق ، ص ص 48-49.

[2] غي برفليلي:النخبة الجزائرية الفرانكفونية1880-1962، ترجمة حاج مسعود وآخرون، دار الوصية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 ص 35.

[3] Guy Pérvillé : Les étudiants Algériens de l'université française، préface، Muhamed Harbi، Kasbah، Editions ، 2009P 72.،

مكونات هذا المجتمع؛ فلا هم جزائريون بثقافتهم وفكرهم ولا هي فرنسيون بعرقهم وجنسيتهم. لقد أراد هؤلاء أن يحولوا مجتمعهم العربي المسلم إلى مجتمع أوربي نضير تعلقهم الشديد بأفكار الغرب ووسائل عيشه وطريقته في العمل وثقافته وتعليمه؛ شعروا بأنهم قُطعوا عن بقية المجتمع الذي كان غريبا عنهم، لقد كانوا يحسون بعقدة الكمال بالنظر إلى المجتمع الجزائري ولكن في المقابل يشعرون بالنقص والدونية بالنظر إلى المجتمع الفرنسي؛ ونتيجة لذلك ضاعوا كما قال المؤرخ الفرنسي **جوريس** بين المجتمعين[1].

لكن؛ هذا لا ينفى دور هؤلاء في محاولاتهم دفع المجتمع الجزائري نحو النهضة والتقدم؛ أي أنهم كانوا يحملون أفكارا ومشاريع خلاقة في نظرهم؛ كانوا شغوفين في أن يلعبوا دورا رياديا وحاسما قد يجعل من مجتمعهم التقليدي المتخلف في اعتقادهم مجتمعا حديثا متقدما. إن عناصر النخبة الجديدة وبفعل تعليمهم وثقافتهم الغربية لم يكونوا قد عرفوا شيئا عن تاريخ أمتهم ووطنهم لأن دراساتهم كانت مقتصرة على الاطلاع على الأمجاد الفرنسية والأدب الفرنسي وتاريخ الغال وغيرها[2].

لقد هالهم ما كان يعيشه شعبهم من حرمان وفقر وجهل ومن اجل ذلك لم يتركوا منبرا أو مساحة إلا واستعملوها ينادون من خلالها بتحقيق المساواة والعدالة بين الجزائريين والأوربيين؛ لقد كانت النخبة الجزائرية الجديدة صوت شعبها المقهور ولسان حاله. ومن الوسائل التي استعملوها للتعبير عن مطالبهم وأهدافهم نجد الجرائد والصحف الوطنية والفرنسية؛ فقد أصدروا عدة صحف وطنية باللغة الفرنسية للتعبير عن مطالبهم وآراءهم كما كانت لهم إسهامات ومداخلات في الصحف الفرنسية خاصة ذات التوجه الشيوعي والذي كان متعاطفا نوعا ما مع الشعب الجزائري نظر لما كان يعيشه هذا الأخير من ظلم واضطهاد على يد المستعمر الفرنسي.

ونتيجة لتجربة النخبة الجزائرية الجديدة في مجال النشاط المطلبي والصحفي تبلورت أفكارهم بشكل كلي وانصرفوا بعد ذلك لإنشاء المنظمات والجمعيات والأحزاب السياسية مما أثار حفيظة وريبة السلطات الاستعمارية نظرا لخطورة المطالب والعرائض- في نظر الاستعمار- التي رفعتها النخبة الجزائرية وفي مقدمتها حق المساواة بين الأهالي والفرنسيين ولعرقلة نشاطهم وارتباطهم بالجماهير المسحوقة عمدت السلطات الاستعمارية على أبعاد النخبة وتحييدها وتحجيم دورها في المجتمع الجزائري.

ومن الهيئات التي أسستها النخبة الجزائرية وكان لها صدى واسع في الجزائر وفرنسا نذكر حركة الجزائر الفتاة والتي ظهرت سنة 1912 على يد مجموعة من الشبان الجزائريون المتخرجون من فرنسا يتقدمهم كل من؛ أحمد بوضربة والصادق دندن وعضو ثالث هو الحاج بن عمار كرد فعل على قانون تجنيد الشباب الجزائري[3].

وقد أجرى الكاتب والصحفي الفرنسي "سيرفي" مقارنة بين النخبة الجزائرية ممثلة في حركة الجزائر الفتاة وبين جماعة تركيا الفتاة ومصر الفتاة في الأدوار والطموحات؛ وتمكن في النهاية من الوصول لنتيجة وهيأنهم فخورين واعيين بدورهم يحملون معهم أفكار سيئة –معادية لفرنسا- غير راضيين بالحالة التي هم فيها طامحون وحالمون بدور هام يلعبونه في شؤون بلادهم وأنهم في الجزائر؛ بمنزلة "تركيا الفتاة" في تركيا، ولكن "سيرفي" يستدرك ويؤكد أن جماعة النخبة الجزائرية كانت مطالبهم واقعية بعيدة عن اليوتوبيا والرومانسية وفي مقدمتها المساواة بين

[1]عبد القادر حلوش: مرجع سابق، ص 265.

[2]أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية، ج2مرجع سابق، ص ص 161-162

[3]مصطفي عبيد، معتصم البشير: اتجاه المساواة في الحركة الوطنية الجزائرية (1912-1923)، مجلة البحوث التاريخية، المجلد 05، العدد: 01 (جوان 2021)، ص ص: 184-185.

الجزائريين والأوربيين؛ ولم يرفعوا سقف المطالب عاليا برفع علم "الجزائر للجزائريين" كما فعل نظرائهم في حركة تركيا الفتاة أو أعضاء مصر الفتاة والذين كانوا يحاولون استعادة بناء إمبراطوريتهم الضائعة في الحالة التركية أو كانوا يطالبون بمصر للمصريين في الحالة الثانية[1].

وقد عرفت جماعة النخبة بعد الحرب العالمية الأولى؛ تيارين سياسيين كبيرين شكلا المنابع الفكرية الأولى للكفاح السياسي في إطار الحركة الوطنية وهما:

* **تيار طالب بالإدماج اللامشروط مع الفرنسيين كوسيلة:** رحب هذا التيار بفكرة منح الجنسية الفرنسية للأهالي مقابل تخليهم عن هويتهم العربية الإسلامية، وقد تزعم هذا التيار كل من ابن التهامي، بن جلول المحامي بوضربة، والأستاذ صوالح[2].

* **تيار قبل بالتجنيس مقابل التمسك بالشخصية العربية الإسلامية:** لم يرضخ هذا التيار لمساومات المستعمر بالتنازل عن الشخصية الإسلامية والهوية الجزائرية؛ وطالبوا بحق الحصول على الجنسية الفرنسية بشرط التمسك بالمقومات الشخصية العربية الإسلامية، وقاد هذا التيار كل من؛ الأمير خالد، والحاج موسى والمهندس قايد حمو[3].

تعقيب:

استطاعت فرنسا الإستدمارية تكوين نخبة جزائرية جديدة من بين الأهالي وفق شروط محددة وصارمة في نفس الوقت؛ بفضل سياستها التعليمية المبنية أساسا على اصطفاء عناصر جزائرية منحدرة من عائلات ارستقراطية كبيرة في العادة قدمت خدمات جليلة للمحتل؛ مرتبطة وظيفيا مع فرنسا وثقافتها العلمانية لتكون وسيط بينه- المستعمر- وبين الأهالي من جهة؛ ومساهمة في نشر قيمه ومبادئه من ناحية أخرى. وعليه لم يكن هدف المحتل نشر الثقافة والتعليم في أوساط الجزائريين بل بالعكس من ذلك عمل وكما أسلفنا ذكره في موضع سابق على تجهيلهم ونشر الامية في أوساطهم؛ والقلة القليلة التي حظيت بفرصة التعليم كانت منتقاة وبدقة لخدمة مصالحه وأهدافه.

إلا ان بعض عناصر النخبة المثقفة الجزائرية استطاع الخروج عن سيطرة المحتل- ولو جزئيا- وانحرفت عن الغاية التي خلقت لأجلها؛ حيث انخرطت في المرافعة والدفاع عن حقوق الأهالي- الجزائريين- بعد ان أحست بمعاناتهم مع المحتل الفرنسي وحرمانهم من أدنى حقوق المواطنة؛ وناضلت من أجل تحقيق المساواة بين الجزائريين والفرنسيين من خلال تشكيل أحزاب سياسية وجمعيات ونوادي ثقافية وفكرية. إلا أن هذه المجهودات لم تكلل بالنجاح لسببين رئيسيين؛ الأول رفض المحتل الفرنسي لجميع أشكال المساواة بين الجزائريين والمعمرين؛ وثانيا- وهو الأهم- الاغتراب الثقافي والاجتماعي الذي كان يعيشوه أفراد النخبة المثقفة الجزائرية المفرنسة عن مجتمعهم الأصلي ومن ثما عدم قدرتهم على فهم واستيعاب ما كان يفكر فيه أفراد هذا المجتمع الذين ظلوا متمسكين بموروثهم الحضاري ومرجعيتهم الاصيلة رغم محاولات المحتل سلخهم عنها منذ احتلاله للجزائر. هذا الموروث وهذه المرجعية تصدت نخبة مثقفة أخرى للحفاظ عليهما وحمايتهما من المسخ الذي مارسه ضدهما المحتل؛ وحاولت بمختلف الوسائل التي كانت متاحة آنذاك نشرهما بين الجزائريين، وقد سميت هذه النخبة المثقفة بـ " النخبة المثقفة الإصلاحية " والتي أدت عديد العوامل الى ظهورها وانبعاثها وتشكلها؛ فما هي هذه العوامل؟

4- عوامل انبعاث النخبة المثقفة الإصلاحية الجزائرية:

مارس المحتل الفرنسي ومنذ احتلاله للجزائر حربا ممنهجة قائمة بالأساس على تخريب وتفكيك كل قطاعات ومجالات الحياة سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية؛ وذلك من أجل القضاء على كينونة الأمة الجزائرية ووجودها بالكامل لإلحاقها بالدولة الأم –كم

[1] يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ص 76-77

[2] ع الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، ط1، دار طليطلة، الجزائر، 2009، ص 115

[3] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 74

يزعم الفرنسيين- وجعلها قطعة فرنسية في النهاية. ولم يسلم الفاعلين الاجتماعيين والثقافيين في الجزائر أصحاب الرأي والتأثير السياسي من أعيان ومثقفين ومدرسين وفقهاء أو ما يمكن أن نطلق عليهم بالطبقة المثقفة أو الطبقة الوسطى من هذه السياسة التدميرية الممنهجة؛ حيث قام بتشتيت وترحيل وتهجير أغلبيتهم إلى وجهات وأماكن بعيدة؛ والقلة منهم الذين لم يشملهم هذا الإجراء تراجعت مكانتهم وقيمتهم المجتمعة؛ واضطروا فيما بعد للرحيل بمحض إرادتهم[1] .

إلا أ ن غالبية الجزائريين واجهوا وحاربوا هذه السياسة وحافظوا على موروثهم الحضاري وخصوصيتهم العربية الإسلامية. وقد انبرى وتصدى لهذه المهمة فئة متنورة جزائرية من ذوي التعليم الأصلي أو ما يطلق عليهم عادة اسم "المحافظين" ممثلين أساسا من بقايا النخبة المثقفة التقليدية التي نجت من بطش الاحتلال الفرنسي والذين كانوا يحملون أفكارا عدائية لممارساته وسياساته لاسيما فكرة التجنس والخدمة العسكرية تحت رايته؛ وكان شعارهم نعم للإصلاح بشرط المحافظة على الهوية والخصوصية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري[2].

ويمكن القول إن هذه الفئة كانت الوريث الشرعي للنخبة المثقفة التقليدية التي أنتجتها الأطر الفكرية التي كانت منتشرة في الجزائر أثناء العهد العثماني والتي سبق ذكرها في عدة مواضع في هذه الدراسة، كما ساهمت حركات الإصلاح التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك بزعامة رواد الإصلاح في العالم العربي والإسلامي من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا في ظهور وتشكل هذه الكتلة خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

ومن أجل تحقيق أهدافها وترجمة أفكارها انكبت وعملت هذه الكتلة على إصلاح المجتمع والفرد الجزائري من الداخل من خلال ترقية الأطر الفكرية التقليدية كالمدارس القرآنية والكتاتيب مثلا؛ مستعيرة في ذلك الأساليب التي استعملها المحتل في مدارسه الحكومية ولكن اصبغوها بصبغة عربية إسلامية، وهي أساليب جديدة وغير معروفة عند الجزائريين في مجال التربية والتعليم؛ حيث تم إدخال اللغة الفرنسية في مناهج هذه المدارس وتم إدراج مواد جديدة لم تكن مدرجة من قبل في مناهج المؤسسات التربوية التقليدية كالتاريخ والجغرافيا. لقد تم تدريس التلاميذ والطلاب الجزائريين هذه المواد الجديدة من أجل تفتح عقولهم وإثارة فضولهم العلمي بعيدا عن العلوم العتيقة التي كانت تدرس في المؤسسات التقليدية وتكرس مبدأ النقل والحفظ الممل. إن هذه الأساليب الجديدة ساهمت إلى حد بعيد في عملية التثقيف من جهة والممانعة- أي منع الطلاب من التوجه للمدارس الفرنسية العلمانية – من جهة أخرى وقد تمكنت في ذلك أيما تمكن حيث أصبحت هذه المدارس قبلة ومزارا للطلبة الجزائريين من مختلف الأماكن والأمصار.

لقد استطاعت هذه الفئة والتي كانت تظم أسماء من أمثال: عبد القادر المجاوي والسعيد بن أحمد بن زكري وعبد الحليم بن سماية وابن شنب؛ أن تكون كتلة أخرى من المتشبعين بالثقافة العربية الإسلامية كان لهم فيما بعد دور أساسي ورئيس في مواصلة رسالة الإصلاح في الجزائر؛ من خلال تأسيس النوادي والصحف الإسلامية والمدارس الحرة خاصة في الفترة ما بين الحربين الكونيتين (1919-1939)، ولعل أهم نادي ظهر في تلك الفترة هو نادي الترقي الذي تأسس عام 1927 على يد ثلة من العلماء الجزائريين أمثال: عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، أحمد توفيق المدني، الطيب العقبي، مبارك الميلي وغيرهم من الأسماء الوازنة علميا وفكريا واجتماعيا[3].

[1] ع الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، 1931-1945، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 44.

[2] ع الوهاب بن خليف، مرجع سابق، ص: 108

[3] ع الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، ط1، دار طليطلة، الجزائر، 2009، ص: 109

و يمكن القول إن السياسة التعليمية الفرنسية ساهمت الى حد ما – ومن غير قصد– في إنتاج نخبة مثقفة جزائرية متشبعة بالثقافة العربية الإسلامية؛ بعد أن حرضت مؤسسي كتلة المحافظين أو الرعيل الأول للنخبة المثقفة الإصلاحية –والتي تعد الامتداد الطبيعي والشرعي للنخبة المثقفة التقليدية في الجزائر– على استنساخ هذه السياسة التعليمية ولكن في قالب يتوائم مع خصوصيات المجتمع الجزائري، ناهيك عن ذلك أصبح هؤلاء فيما بعد أساتذة ومشايخ للجيل الثاني لهذه النخبة الإصلاحية والذين أسسوا لاحقا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الخامس من شهر ماي عام 1931 والتي تعد بحق الحلقة الأخيرة من حلقات حركات الإصلاح في الجزائر، لقد استطاعت هذه الجمعية ولأول مرة أن تجمع جميع العلماء المسلمين الجزائريين تحت رايتها بخلاف الحركات الأخرى والتي كانت محدودة العدد والتأثير؛ ويعتبرها أغلب المؤرخين والكّتاب الباعث الحقيقي والعامل الرئيسي الأول للنهضة الجزائرية لأنها جاءت لإصلاح شؤون الفرد في المعتقد والسلوك من جهة؛ وإصلاح المجتمع برمته من جهة أخرى[1].

سادسا–عرض النتائج العامة للدراسة ومناقشتها:

ومما سبق يمكن القول إن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت تحوز على **نخب مثقفة ثقافة عربية وإسلامية** تكونت ضمن اطر فكرية أصيلة (جوامع، مدارس قرآنية، زوايا) كانت منتشرة بكثرة في الجزائر قبل حتى مجيء الأتراك؛ كما ساهمت هذه النخبة إلى حد ما في ازدهار الحياة الثقافية والعقلية في المجتمع الجزائري. ومن جهة أخرى لعب الاحتلال الفرنسي دورا مهما – عن قصد أو عن غير قصد–؛ ومن خلال سياسته التعليمية في إنتاج نوعان من النخب المثقفة في الجزائر؛ الفئة الأولى من هذه النخب كانت مفرنسة يطلق عليها عادة في الأدبيات التاريخية بالنخبة أو كما سميناهم نحن في هذه الدراسة **بالنخبة المثقفة الجديدة**؛ ارتبطت ثقافيا ووجدانيا بفرنسا نظر لدراستها في المدارس والجامعات الفرنسية وتأثرت بالثقافة الأوربية وانبهرت بمظاهرها وتقاليدها؛ وبذلك أصبح جزء منها منافحا عن فرنسا في الجزائر ومتحمسا لفكرة الإدماج كما أنكر أو تجاهل حضارته العربية الإسلامية؛ لكن في المقابل لعب فريق أخر منها دورا أساسيا في نشوء وتبلور الوعي السياسي للمجتمع الجزائري من خلال إنشائه الأحزاب السياسية والجمعيات والهيئات ورفعه لمطالب وعرائض منادية بحق الشعب الجزائري في المساواة والعدالة في كنف الجمهورية الفرنسية.

أما الفئة الثانية فسميت **بالعلماء** أو كما أطلق عليها بعض المؤرخين تسمية النخبة المثقفة المحافظة أو الإصلاحية؛ وقد كانت نفس السياسة التعليمية الفرنسية سببا في بروز هذه النخبة المثقفة– ولو بدون قصد– وذلك من خلال ما يسمى بصدمة الحداثة أو التحديث؛ فالجزائريون وبعد احتكاكهم المباشر بالثقافة الفرنسية والغربية عموما أدركوا تخلفهم عن التقدم الحضاري الذي كان يعيشوه الغرب بفضل مؤسساته التعليمية الحديثة؛ فحاولوا تقليده من خلال إنشاء مؤسسات تعليمية مواكبة لروح العصر متمسكة بخصوصيات المجتمع الجزائري وأصالته؛ وهو ما أدى في النهاية إلى إنتاج نخبة مثقفة مرتبطة فكريا ووجدانيا بالثقافة العربية الإسلامية في مقابل النخبة الأولى ذات التكوين الغربي .

سابعا–خـــاتمة:

إجمالا يمكن القول أن المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي خاصة في العهد التركي كان يحوز على فاعلين اجتماعيين وثقافيين؛ ساهموا في نشر والمحافظة على الموروث الثقافي والحضاري الأصيل للأمة الجزائرية كما عملوا على بقاء واستمرار أواصر الارتباط بينها وبين المشرق العربي الإسلامي، وقد حمل هؤلاء مسميات وألقاب تختلف من حيث الدلالة اللغوية عن مصطلح النخبة الغربي ولكن تشترك معه

[1] ع الكريم بوالصفصاف، مرجع سابق، ص: 98.

إلى حد ما في النشاط والوظيفة الاجتماعية والثقافية داخل المجتمع، كما تكون هؤلاء وتخرجوا من المؤسسات التعليمية والدينية التقليدية التي كانت منتشرة بكثرة في المجتمع الجزائري في تلك الفترة؛ وأكمل بعضهم دراسته العليا في الجامعات الإسلامية المعروفة آنذاك

ومن الواضح أيضا أن السياسة التعليمية الاستعمارية كان لها تأثيرا مباشرا في نشأة وظهور النخبة الجزائرية الجديدة ذات الثقافة الفرنسية؛ لكن نفس السياسة ساهمت هي الأخرى وبدون قصد في بروز نخبة ثانية مغايرة تماما للأولى سواء من حيث الأيديولوجية أو الأطر الفكرية التي تكونت داخلها؛ وقد كانت امتداد طبيعي ومنطقي للنخبة المثقفة التقليدية – العمائم القديمة –التي كانت موجودة قبل الاحتلال الفرنسي وقد سميت هذه الفئة بالنخبة المثقفة الإصلاحية أو العلماء؛ وقد تأثرت هذه النخبة المثقفة– الإسلامية– برافد آخر كان له الدور الرئيس أيضا في انبعاثها وتشكلها وهو حركات الإصلاح الديني التي ظهرت في المشرق الإسلامي بزعامة ثلة من المفكرين والعلماء مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده؛ هذ الأخير الذي آثر في النخبة المثقفة الإصلاحية أيما تأثير خاصة بعد زيارته للجزائر سنة 1903 والتي تعتبر– هذه الزيارة– منعرجا حاسما في تاريخ هذه النخبة. لقد لعبت النخبة المثقفة الإصلاحية الجزائرية دورا مهما ومفصليا في المحافظة على القيم الأصيلة للمجتمع الجزائري معتمدة في ذلك على مؤسسات تعليمية مواكبة لروح العصر أسستها هذه النخبة محاكية في ذلك المؤسسات التعليمية الغربية ولكن بصبغة عربية إسلامية. إن النتيجة الأخيرة التي توصلت إليها هذه الدراسة تفتح المجال واسعا أمام دراسات أخرى للبحث في موضوعة النخبة الإصلاحية الجزائرية في ظل الحكم الاستعماري للمساهمة في إثراء البحوث العلمية في هذا المجال.

المراجـــع:

1-أبو القاسم سعد الله محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
2-أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.
3-أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.
4-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
5-أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2009.
6-أحمد زايد: البناء السياسي في الريف المصري، تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981.
7-أحمد صلاح الدين الموصللي، لؤي صافي:جذور أزمة المثقف في الوطن العربي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2002.
8-إدوارد سعيد:المثقف والسلطة، ط1، تج محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2006.
9-أشرف صالح محمد سيد:"المراكز الثقافية في دار السلطان(الجزائر) أواخر العصر التركي"، مجلة أماراباكمج 04، ع/07ن(2013).
10-بلقاسم سلاطنية، حسان الجيلاني، منهجية العلوم الاجتماعية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004.
11-جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، ط1، تج جورج طرابشي، دار الآداب، بيروت لبنان، 1973.
12- ع الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، ط1، دار طليطلة، الجزائر، 2009.
13-عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، 1931-1945، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
14عبدالقادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
15-علي شريعيتي: مسؤولية المثقف، تر، إبراهيم الدسوقي، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت ، لبنان، 2005.
16-غي برفليليي:النخبة الجزائرية الفرانكفونية1880-1962، ترجمة حاج مسعود وآخرون، دار الوصية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 .

17-فضيل دليو وآخرون: أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية، دط، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1999.
18-كمال خليل: "المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر، التأسيس والتطور (1850-1951)"(رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية2007 -2008).
19-محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000.
20-محمد علي محمد: أصول علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2009.
21-مصطفي عبيد، معتصم البشير: اتجاه المساواة في الحركة الوطنية الجزائرية (1912-1923)، مجلة البحوث التاريخية، المجلد 05، العدد: 01 (جوان 2021).
22-مولود زايد الطيب، علم الاجتماع السياسي، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، 2007.
23-مولود قرين: النخبة الجزائرية " مرجعيات، تيارات، مواقف واهتمامات 1927/1892، ط1، دار ومضة، جيجل، الجزائر، 2021.
24-يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

1. Cherif benhbeyles : l'Algérie française vue par indigène, préface de George marçais, imprimerie orientale, Alger, 1914.
2. Guy Pérvillé : les étudiants algériens de l'université française, préface, Muhamed harbi, kasbah, éditions 2009 .
3. Jean-marc péotte : La pensée politique de gramsci, éditions parti-pris, Chicoutimi, Québec.2002
4. Rogers. Gottlieb : An Anthology of Western Marxism, Oxford University Press, New York ،USA, 1919.